

التفسير المحرر 25-10125-1.0

إلى الله وَحْدَهُ يُرْجَعُ عِلْمُ وَقْتِ مَجِيءِ الْقِيَامَةِ؛ فَلَا يَعْلَمُ وَقْتُهَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَمَا تَبَرَّرُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ أَيْ ثَمَرَةٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ أَوْعِيَّتِهَا وَظُرُوفِهَا إِلَّا يَعْلَمُهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا تَحْمِلُ أَيْ أَنْتَى مِنْ حَمَلٍ وَلَا تَضَعُ حَمْلَهَا إِلَّا يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَانْكَرُ يَوْمَ يُنَادِي اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ لِي فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَكُمْ؟! فَأَجَابَ الْمُشْرِكُونَ رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: أَعْلَمْنَاكَ -رَبَّنَا- الْيَوْمَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَّا أَحَدٌ يَشْهَدُ أَنَّ لَكَ شَرِيكًا!

وَاغَابَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْهَتَمُ الَّذِي كَانُوا يَدْعُونَهَا مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا، فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِدُعَائِهِمْ لَهُمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ فِرَارٌ وَلَا مَهْرَبٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَحِيدُونَ إِلَيْهِ لَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ سُؤَالِ رَبِّهِ الْمَالِ وَالصِّحَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا، وَلَا يَزَالُ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ مِنْهَا، وَإِنْ نَالَ الْإِنْسَانُ شِدَّةً وَكَرْبًا، مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَهُوَ ذُو يَأْسٍ شَدِيدٍ مِنْ تَفْرِيجِ اللَّهِ عَنْهُ، فَتَنُوطٌ مِنْ أَنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ

وَلَنْ مَنَحْنَا الْإِنْسَانَ نِعْمَةً وَخَيْرًا مِنَّا بَعْدَ الشَّدَّةِ وَالْمَحْنَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ، لَيَقُولَنَّ بَغْرُورٍ: أَنَا أَهْلٌ لِهَذَا الْخَيْرِ وَمُسْتَحَقٌّ لَهُ، وَمَا أَظُنُّ الْقِيَامَةَ كَاتِبَةً؛ فَلَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ وَقُوعِ الْبَعْثِ وَحُصُولِ الْجَزَاءِ، وَعَلَى قَرَضٍ أَنِّي رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي، وَبُعِثْتُ بَعْدَ مَوْتِي، فَسَتَكُونُ لِي الْجَنَّةُ! فَلَنُخْبِرَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ بِالَّذِي عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ الشَّدِيدِ الْإِيلَامَ

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ بِنِعْمَةٍ مِنْ رِزْقٍ أَوْ صِحَّةٍ، أَعْرَضَ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَشَكَرِهِ وَحْدَهُ، وَتَرَفَّعَ عَنِ الْانْقِيَادِ إِلَى الْحَقِّ وَتَكَبَّرَ

وَإِذَا نَالَ الْإِنْسَانُ شَرًّا مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ، تَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ
وَاسْتَغَاثَ بِهِ؛ لِيَكْشِفَ عَنْهُ ضُرَّهُ، وَأَطَالَ الدَّعَاءَ وَاسْتَكْثَرَ مِنْهُ
قُلْ - يَا مُحَمَّدٌ - لِكُفَّارِ قَوْمِكَ: أَخْبِرُونِي إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ حَقًّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، فَلَا أَحَدٌ أَضَلُّ مِنْكُمْ لِقِرْطِ شِفَاقِكُمْ
وَعِنَادِكُمْ وَعِدَاوَتِكُمْ؛ لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ لَكُمْ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ، ثُمَّ عَدَلْتُمْ
عَنْهُ، فَأَهْلَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ

سُئِرِي أَوْلَئِكَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ آيَاتِنَا الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ
حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ، وَذَلِكَ بِدَلَالِ خَارِجِيَّةٍ فِي
الْأَفَاقِ وَالنُّوَاحِي، وَدَلَالِ فِي أَنْفُسِهِمْ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ
حَقٌّ، فَلَا يَجِدُوا إِلَى إنْكَارِ ذَلِكَ سَبِيلًا، أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ - يَا مُحَمَّدٌ -
أَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ذَلِكَ شَهَادَتُهُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ نَزَلَ
مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟
أَلَا إِنَّ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ فِي شَكٍّ مِنْ وَقُوعِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛
وَلِذَلِكَ لَا يَرْجُونَ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا، وَلَا يَخَافُونَ فِيهَا عِقَابًا، أَلَا
إِنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَغَيْرَ ذَلِكَ

هَذَانِ الْحَرْفَانِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِهَا بَعْضُ
سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لِبَيَانِ إعْجَازِ هَذَا الْقُرْآنِ؛ حَيْثُ تُظْهِرُ عَجَزَ
الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ
الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا.

تَقَدَّمَ بَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ.
مِثْلَ ذَلِكَ الْإِيحَاءِ يُوجِي إِلَيْكَ - يَا مُحَمَّدٌ - وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: اللَّهُ الْعَزِيزُ ذُو الْقُدْرِ الْعَظِيمِ، الْغَالِبُ الْقَاهِرُ لِمَنْ
سِوَاهُ، الْمُمْتَنِعُ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، الْحَكِيمُ الَّذِي يَضَعُ كُلَّ
شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ.

لله مُلْكُ ما في السَّمَوَاتِ وما في الأَرْضِ؛ فكلُّ شَيْءٍ تحتَ قَهْرِهِ وتَدْبِيرِهِ، وهو العَلِيُّ على كُلِّ شَيْءٍ بذاتِهِ وصِفَاتِهِ وَقَدْرِهِ وقَهْرِهِ؛ فلا شَيْءَ أَعْلَى منه، ذو العِظَمَةِ في ذاتِهِ وصِفَاتِهِ؛ فلا شَيْءَ أَعْظَمُ منه.

تُوشِكُ السَّمَوَاتُ أَنْ يَتَشَقَّقْنَ مِنْ فَوْقِ الأَرْضَيْنِ، خوفاً مِنَ الله، وَهَيْبَةً وإِجْلَالاً، ولادعاءِ الولدِ لَهُ. والمَلَائِكَةُ يُنَزِّلُهُنَّ اللهُ تَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ النِّقَائِصِ، وَيَصِفُونَهُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ؛ مَحَبَّةً لَهُ وَتَعْظِيماً، وَيَسْأَلُونَ اللهَ المَغْفِرَةَ لِذُنُوبِ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنَ المُؤْمِنِينَ، أَلَا إِنَّ اللهَ وَحْدَهُ هو البَالِغُ المَغْفِرَةُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، العَظِيمُ الرَّحْمَةُ بِهِم.

وَأَمَّا الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ يَتَوَلَّوْنَهُم بِالْعِبَادَةِ والطَّاعَةِ، فَاللهُ شَهِيدٌ وَرَقِيبٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ يُحْصِيهَا عَلَيْهِمْ؛ لِيُجَازِيَهُمْ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وما أَنْتَ -يا مُحَمَّدٌ- بِمُوكَّلٍ بِحِفْظِ أَعْمَالِهِمْ، أَوْ بِفَسْرِهِمْ عَلَى الهِدَايَةِ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِنْذَارُهُمْ وَتَبْلِيغُهُمْ، وَعَلَى اللهِ جِسَابُهُمْ.

وَمِثْلَ ذَلِكَ الإِيحَاءِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ -يا مُحَمَّدٌ- قُرْآنًا بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ؛ لِيَفْهَمُوا ما فِيهِ، فَالَّذِينَ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِمْ قَوْمٌ عَرَبٌ، أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا؛ لِنُنْذِرَ بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فِي جَمِيعِ الأَرْضِ عَذَابًا شَدِيدًا إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَلِنُنْذِرَ النَّاسَ بِالْقُرْآنِ فَتُخَوِّفَهُمْ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّتِي لَا مَحَالَهَ، فَمِنْهُمْ جَمَاعَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَهُمْ المُؤْمِنُونَ باللهِ المُتَّبِعُونَ لِرَسُولِهِ، وَمِنْهُمْ جَمَاعَةٌ فِي النَّارِ المُلْتَهَبَةِ المُوقَدَةِ، وَهُمْ الكَافِرُونَ باللهِ المُخَالِفُونَ لِرَسُولِهِ.

ولو شاء الله أن يجمعَ كُلَّ النَّاسِ على دينٍ واحدٍ لَفَعَلَ، ولكنَّ اللهَ شاءَ مَشِيئَةً أُخْرَى تَجْرِي على وَفْقِ حِكْمَتِهِ، فَيُدْخِلُ بَعْضَ عِبَادِهِ فِي دِينِهِ، وَيَتَوَلَّاهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، وَيُدْخِلُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِي حَبْتِهِ، وَأَمَّا الظَّالِمُونَ فَلَيْسَ لَهُمْ -بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ- أَيُّ وَلِيٍّ يَتَوَلَّاهُمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَيُّ نَصِيرٍ يَنْصُرُهُمْ، فَهُمْ مَحْرُومُونَ مِنَ الدُّخُولِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

أَمْ اتَّخَذَ الظَّالِمُونَ أَوْلِيَاءَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ بِطَاعَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟! فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقُّ، يَتَوَلَّى شُؤُونَ جَمِيعِ عِبَادِهِ عَامَّةً، وَيَتَوَلَّى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً بِتَرْبِيَّتِهِمْ، وَإِعَانَتِهِمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَنَصْرِهِمْ وَتَأْيِيدِهِمْ، فَلْيَتَّخِذُوهُ وَلِيًّا بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، لَا مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى بِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْبَالِغُ الْقُدْرَةِ عَلَى فِعْلِ كُلِّ شَيْءٍ، كإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَغَيْرِهِ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ سِوَاهُ.

وَمَا تَنَازَعْتُمْ فِيهِ -أَيُّهَا النَّاسُ- مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ؛ فَهُوَ مَنْ يَقْضِي بَيْنَكُمْ فِيمَا فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، ذَلِكَمُ اللَّهُ الْعَظِيمُ هُوَ رَبِّي، عَلَيْهِ وَحْدَهُ اعْتَمَدْتُ، وَإِلَيْهِ فَوَّضْتُ جَمِيعَ أُمُورِي، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ شُؤُونِي، وَأَقْبِلْ عَلَيْهِ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِي.

هُوَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ جَنْسِكُمْ إِنَاثًا، وَجَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعْزِ وَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، يَخْلُقُكُمْ اللَّهُ وَيُكَثِّرُكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- أَنْتُمْ وَأَنْعَامُكُمْ فِي هَذَا الْجَعْلِ الْمَذْكُورِ، لَيْسَ مِثْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ؛ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ؛ فَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

لِكُلِّ صَوْتٍ، الْبَصِيرُ بِكُلِّ مَا فِي الْوُجُودِ؛ فَلَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ.

لِلَّهِ وَحْدَهُ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَلِكُهُ وَبِيَدِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يُوسِّعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ وَمَصَالِحِهِمْ، وَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ بِمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَقْتَضِيهِ مَشِئَتُهُ.

سَنَ اللَّهُ لَكُمْ وَبَيَّنَّ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- مَا وَصَّى بِهِ نُوْحًا أَنْ يَعْمَلَهُ، وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَمَا وَصَّى بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَذَلِكَ هُوَ إِقَامَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ، بِلَا تَحْرِيفٍ وَلَا غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ فِي الْعَمَلِ بِهِ، مَعَ الْجَمَاعَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَتَبْذِيرِ التَّفَرُّقِ وَالْإِخْتِلَافِ فِيهِ، عَظُمَ وَشَقَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ -يَا مُحَمَّدُ- مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، فَاللَّهُ يَصْطَفِي وَيَخْتَارُ لِنَفْسِهِ وَوَلَايَتِهِ مَنْ أَحَبَّ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَهْدِي اللَّهُ إِلَيْهِ مَنْ يَتُوبُ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَيُقْبَلُ عَلَى طَاعَتِهِ.

وَمَا تَفَرَّقَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ فَصَارُوا أَحْزَابًا، وَحَصَلَتْ مِنْهُمْ الْمُخَالَفَةُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ مِنَ اللَّهِ بِإِقَامَةِ دِينِهِ، وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَغْيُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَتَحَاسُدُهُمْ، وَطَلْبُهُمُ لِلرَّئَاسَةِ، وَاشْتِغَالُهُمْ بِالْأَدْنِيَا، وَلَمْ يَكُنْ تَفَرُّقُهُمْ لِقُصُورٍ فِي الْبَيَانِ وَالْحُجَجِ؛ فَقَدْ بَلَغَهُمُ الْحَقُّ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَلَوْ لَا قَوْلُ سَبَقٍ مِنْ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ- بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ وَإِمهَالِهِمْ إِلَى وَقْتٍ مُحَدَّدٍ، لَعَجَلَ الْعُقُوبَةُ لِأُولَئِكَ الْمَتَفَرِّقِينَ فِي دِينِهِمْ بَغْيًا بَغِيرَ حَقٍّ، وَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ أُوتُوا التَّوْرَةَ

والإنجيل من بعد أسلافهم المختلفين في الحقّ لفي شكّ موجبٍ
للارتياب والاضطراب من كتابهم.

فللذين الحقّ الذي شرّعه الله لكم، وأمركم بإقامته وعدم
التفرّق فيه- فادعُ النَّاسَ، يا مُحَمَّدُ، واثبتْ على هذا الدينِ،
واستمِرَّ على العملِ به بلا إفراط ولا تفريط، ولا تتبّع -يا مُحَمَّدُ-
أهواء أولئك المنحرفين عن الحقّ، وقُلْ: آمَنْتُ بما أنزلَ اللهُ من
الكتبِ كلّها، فلا أكذبُ بالتّوراةِ ولا بالإنجيلِ ولا بالقرآن، ولا
بغير ذلك من كتبِ الله، وأمرني ربّي بأن أعدلَ بينكم، اللهُ ربُّنا
وربُّكم، خالقُ الجميع ومالكُهم ومُدبِّرُ أمورهم؛ فوجبَتْ طاعتهُ،
وإقامة دينه، لنا جزاءُ أعمالنا، ولكم جزاءُ أعمالكم، وسيُجازي
اللهُ كلًّا بحسبِ أعماله، ولن يؤاخِذَ أحدٌ منّا بذنْبِ الآخر، لا جدالٌ
ولا منازعةٌ بيننا وبينكم؛ فقد تبيّنَ الحقُّ وظهَرَ، وصِرْتُمْ
محجوجين به، ولم يبقَ إلّا الإقرارُ به أو العنادُ، اللهُ يَجْمَعُ بيننا
وبينكم يومَ القيامةِ، فيقضي بيننا بالحقّ فيما نختلفُ فيه، ويتبيّنُ
حينئذٍ المحقُّ من المبطّل، وإلى اللهِ وحده مرجعُنا بعد موتنا،
فيُجازي كلًّا منّا بعمله.

والذين يُجادلون ويُنازعون المؤمنين في شأنِ الله بشبّهاتهم
وحججهم -كالمجادلة في توحيدِهِ أو أسمائِهِ وصفاتِهِ- من بعد
دخولِ النَّاسِ في دينه والإيمان به سبحانه؛ فإنّ مُجادلتهم باطلَةٌ
عند اللهِ، ولا ثباتٌ لها ولا بقاء، وعليهم من اللهِ غضبٌ، ولهم
مع ذلك عذابٌ شديدٌ.

اللهُ الَّذي أنزلَ القرآنَ على رَسولِهِ مُستَملاً على الحقّ، وأنزلَ
العدلَ؛ ليقضَى بينَ النَّاسِ بالإنصافِ، ويُحكَمَ فيهم بحُكمِ اللهِ

تعالى، وأي شيء يُعلمك -يا مُحَمَّدُ- لَعَلَّ وَقْتَ مَجِيءِ الْقِيَامَةِ قد دنا واقترب؟

يَطْلُبُ التَّعَجِيلَ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقِيَامِهَا؛ اسْتِهْزَاءً مِنْهُمْ، أَوْ إنْكَارًا وَتَكْذِيبًا لَوْقُوعِهَا، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ خَائِفُونَ مِنْ مَجِيءِ السَّاعَةِ خَوْفًا عَظِيمًا، وَيُوقِنُونَ أَنَّ مَجِيئَهَا حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ وَيَشْكُونَ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ لَفِي ذَهَابٍ بَعِيدٍ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ.

اللَّهُ بَالِغُ اللَّطْفِ بِعِبَادِهِ، فَيُبَيِّسُ لَهُمُ الْخَيْرَ، وَيَسْوَقُ لَهُمُ الْأَرْزَاقَ بِطَرُقٍ خَفِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِكَمَالِ الْقُوَّةِ؛ فَلَا يَلْحَقُهُ سُبْحَانَهُ ضَعْفٌ، وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِكَمَالِ الْعِزَّةِ؛ فَهُوَ ذُو الْقَدْرِ الْعَظِيمِ، الْغَالِبُ الْقَاهِرُ، الْمُمْتَنِعُ عَلَيْهِ كُلُّ سُوءٍ وَنَقْصٍ.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ عَمَلَ الْآخِرَةِ وَالسَّعْيَ وَالْإِعْدَادَ لَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يُقَوِّيه وَيُعِينُهُ، وَيُبَيِّسُ لَهُ ذَلِكَ، فَيَزِدَادُ مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَيُضَاعَفُ اللَّهُ لَهُ الثَّوَابُ، وَيَجْزِيهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ عَمَلَ الدُّنْيَا وَالسَّعْيَ لَهَا دُونَ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ مِنْ مَتَاعِهَا نَصِيبَهُ الَّذِي قَسَمَهُ لَهُ، وَلَا يَحْرُمُهُ مِمَّا شَاءَ لَهُ مِنْ رِزْقٍ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ.

أَمْ لِلْمُشْرِكِينَ شُرَكَاءُ وَضَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ أُمُورًا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِوَضْعِهَا، وَلَمْ يَأْمُرْ بِهَا؟ وَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ السَّابِقُ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ لَعَجَلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ -بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ- عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ.

تَرَى الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -يَا مُحَمَّدُ- خَائِفِينَ خَوْفًا عَظِيمًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى مَا كَسَبُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ الْعَذَابُ الَّذِي

يُشْفِقُونَ مِنْهُ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الدُّنْيَا بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ بِإِخْلَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَمُتَابَعَةٍ لِشَرْعِهِ: فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ مَسْرُورُونَ مُنْعَمُونَ، فَلِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ مَا يَشَاؤُونَهُ مِمَّا تَشْتَهُيهِ أَنْفُسُهُمْ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا تَبْلُغُ الْعُقُولُ عَظِيمَ قَدْرِهِ، وَلَا حَقِيقَةَ صِفَتِهِ.

ذَلِكَ النَّعِيمُ الْعَظِيمُ هُوَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ فِي الدُّنْيَا، قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- لِقَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَعَوْضًا تُعْطُونَنِي إِيَّاهُ عَلَى تَبْلِيغِي إِيَّاكُمْ الْقُرْآنَ وَرِسَالَةَ اللَّهِ، لَكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَوَدُّونِي فِي قَرَابَتِي مِنْكُمْ، وَتَصِلُوا الرَّحِمَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَتَكُونُوا عَلَيَّ أَذَاكُم، وَتَمْنَعُونِي مِنْ أَدَى النَّاسِ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَسَنَةً مِنَ الْحَسَنَاتِ وَيَكْتَسِبْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَزِيدُ لَهُ ثَوَابَ عَمَلِهِ وَيُضَاعِفُهُ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ الْمَغْفِرَةِ لِدُنُوبِ عِبَادِهِ وَإِنْ كَثُرَتْ؛ شُكُورٌ لِحَسَنَاتِهِمْ، فَيَقْبَلُهَا مِنْهُمْ، وَيُضَاعِفُهَا لَهُمْ وَإِنْ قَلَّتْ.

أَمْ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ: اخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ دَعَايَ الْوَحْيِ وَالنُّبُوءَةِ؟ كَذِبًا مِنْهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟! إِنْ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَطْبَعَ عَلَى قَلْبِكَ، فَيَسْلُبَكَ مَا آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُفَرِّهُ عَلَى افْتِرَائِهِ وَلَا يُمَكِّنُهُ مِنْهُ، وَيُذْهِبُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُزِيلُهُ، وَبَيَّنَّتْ اللَّهُ بِكَلِمَاتِهِ الْكُونِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ الْحَقَّ عَلَى وَجْهِ لَا يُمَكِّنُ مَعَهُ زَوَالَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا تُكِنُّهُ الصُّمَائِرُ، وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

والله وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ تَوْبَةَ عِبَادِهِ إِذَا تَابُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهِ، وَيَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِ عِبَادِهِ، فَيَتَجَاوَزُ عَنْ مُوَآخَذَتِهِمْ بِهَا، وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا تَفْعَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

وَيُجِيبُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ؛ إِذَا دَعَوْهُ، وَيُعْطِيهِمْ مَا طَلَبُوهُ مِنْهُ، وَيَزِيدُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ فَضْلِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيُعْطِيهِمْ مَا لَمْ يَسْأَلُوهُ، أَوْ يَزِيدُهُمْ ثَوَابًا عَلَى مَا عَمِلُوهُ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ قَوِيٌّ؛ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ.

ولو وَسَّعَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ فَوْقَ حَاجَتِهِمْ، لَأَفْضَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ يُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَيُقَدِّمُوا عَلَى الْمَعَاصِي وَيَبْطَرُوا النِّعْمَةَ، وَيَعْتَدِيْ بِغَضَبِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْزِلُ مَا يَشَاءُ تَنْزِيلَهُ مِنْ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بِمِقْدَارٍ مُّعَيَّنٍّ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَبِيرٌ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَعَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ، وَهُوَ بَصِيرٌ بِهِمْ؛ يَرَاهُمْ وَيَعْلَمُ مَا يُصْلِحُهُمْ.

والله هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْمَطَرَ الَّذِي يُغِيثُ بِهِ النَّاسَ مِنْ بَعْدِ مَا يَنْسَوْنَ مِنْ نُزُولِهِ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَيَسْطِطُّهَا؛ فَتَحْيَا الْبِلَادُ، وَيَنْتَفِعُ الْعِبَادُ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْوَلِيُّ الَّذِي يَتَوَلَّى عِبَادَهُ بِإِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ، وَيَتَصَرَّفُ لَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ؛ الْحَمِيدُ عَلَى هَذِهِ الْوَلَايَةِ، وَالْمُسْتَحِقُّ لِلثَّنَاءِ وَالشُّكْرِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ عَلَى مَا لَهُ مِنَ الْكَمَالِ، وَعَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ، الْمَحْمُودُ الْعَاقِبَةُ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَفْعَلُهُ.

وَمِنَ الْعَلَامَاتِ الْبَاهِرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظِيمِ مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ: أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَفَرَّقَ وَنَشَرَ فِيهِمَا مَخْلُوقَاتٍ مُّتَنَوِّعَةً، وَاللَّهُ عَلَى

جَمَعَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ -إِذَا شَاءَ أَنْ يَجْمَعَهَا- ذُو قُدْرَةٍ بِالْغَةِ عَظِيمَةٍ؛ فَلَا يُعْجِزُهُ إِحْيَاؤُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَجَمْعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمَا أَصَابَكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- مِنْ مَصَائِبَ وَمَحَنٍ، فَهُوَ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمُوهُ مِنْ سَيِّئَاتٍ، وَيَعْفُو اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبِكُمْ؛ فَلَا يُعَاقِبُكُمْ عَلَيْهَا بِالْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ فِي الدُّنْيَا.

وَلَسْتُمْ تُعْجِزُونَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ؛ فَلَا يُمَكِّنُكُمْ الْفِرَارُ فِيهَا مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْعُقُوبَاتِ إِنْ أَرَادَ أَنْزَالُهَا بِكُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ مِمَّا سِوَى اللَّهِ أَيُّ وَلِيٍّ يَتَوَلَّاهُمْ، وَلَا أَيُّ نَصِيرٍ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ فَاتَّقُوا مَعْصِيَتَهُ، وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ.

وَمِنَ الْعَلَامَاتِ الْبَاهِرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ سُلْطَانِ اللَّهِ وَمُلْكِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ: السُّفُنُ الْجَارِيَةُ فِي الْبَحْرِ، الَّتِي هِيَ كَالْجِبَالِ.

إِنْ يَشَأْ اللَّهُ تَعَالَى أَلَّا تَجْرِيَ تِلْكَ السُّفُنُ فِي الْبَحْرِ يَمْنَعُ هُبُوبَ الرِّيحِ الَّتِي تُسَيِّرُهَا، فَيَثْبُتْنَ فِي مَوَاضِعِهِنَّ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، فَلَا يَتَقَدَّمْنَ وَلَا يَتَأَخَّرْنَ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ يَسْتَدِلُّ بِهَا وَيَعْتَبِرُ كُلُّ مَنْ كَانَ كَثِيرَ الصَّبْرِ، كَثِيرَ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى.

أَوْ إِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُغْرِقُ تِلْكَ السُّفُنَ بِسَبَبِ ذُنُوبِ أَهْلِهَا، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الذُّنُوبِ، فَلَا يُعَاقِبُ عَلَيْهَا.

وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لِدَفْعِهَا وَإِبْطَالِهَا أَنَّهُ لَا مَفْرَءَ لَهُمْ وَلَا مَهْرَبَ يَحِيدُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَالَّذِي أَوْتِيْتُمُوهُ مِنْ نِعَمٍ دُنْيَوِيَّةٍ، فَإِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ تَتَمَتَّعُونَ بِهَا فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَأَدْوَمُ -فَهُوَ بَاقٍ لَا يَنْفَدُ- لِلَّذِينَ

آمَنُوا بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَعَلَى رَبِّهِمْ وَحْدَهُ يَعْتَمِدُونَ،
وَيُفَوِّضُونَ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِهِمْ.

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ، وَيَجْتَنِبُونَ الْفَوَاحِشَ كَالْقَتْلِ
وَالزَّوْنِ، وَإِذَا غَضِبُوا عَلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ يَصْفَحُونَ عَنْهُ،
وَيَتَغاضَّوْنَ عَنْ إِسَاءَتِهِ، وَلَا يَنْتَقِمُونَ لَأَنْفُسِهِمْ.

وَالَّذِينَ أَجَابُوا رَبَّهُمْ إِلَى كُلِّ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَلَبَّوْا دَعْوَتَهُ،
وَانْقَادُوا لَطَاعَتِهِ، وَأَدَّوْا الصَّلَواتِ عَلَى الْوَجْهِ الثَّامِ الْمُسْتَقِيمِ
الَّذِي أَمَرُوا بِهِ، وَشَأْنُهُمُ الْعَامُّ شُورَى بَيْنَهُمْ؛ فَهُمْ يَتَدَاوَلُونَ الرَّأْيَ
فِيمَا نَزَلَ بِهِمْ، وَلَا يَسْتَبِدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِرَأْيِهِ دُونَ الْآخَرِينَ فِي
الْأُمُورِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُمْ، وَمِمَّا رَزَقَهُمُ رَبُّهُمْ يَتَصَدَّقُونَ وَيَبْدُلُونَ
فِي سَبِيلِهِ.

وَالَّذِينَ إِذَا بَغَى عَلَيْهِمْ بَاغٍ، وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ مُعْتَدٍ؛ فَإِنَّهُمْ
يَنْتَصِرُونَ.

وَجَزَاءُ سَيِّئَةِ الْمُسِيءِ هُوَ عُقُوبَتُهُ بِمِثْلِ جِنَايَتِهِ، بِلَا زِيَادَةٍ،
فَمَنْ عَفَا عَنْ أَسَاءَةٍ إِلَيْهِ وَأَصْلَحَ، فَتَوَابَهُ عَلَى اللَّهِ لَا مَحَالَةَ، وَلَنْ
يُضِيعَ اللَّهُ ثَوَابَهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الَّذِينَ يَعْتَدُونَ عَلَى النَّاسِ
فَيَظْلِمُونَهُمْ ابْتِدَاءً، أَوْ يُجَاوِزُونَ الْحَدَّ فِي الْاِقْتِصَاصِ مِمَّنْ
ظَلَمَهُمْ.

وَمَنْ انتَصَرَ مِنْ ظَالِمٍ لَهُ بَعْدَ تَحَقُّقِ وَقُوعِ ظُلْمِهِ، فَأُولَئِكَ
الْمُنْتَصِرُونَ لَا عُقُوبَةَ عَلَيْهِمْ، وَلَا لَوْمَ وَلَا حَرَجَ إِذَا أَخَذُوا حَقَّهُمْ
دُونَ زِيَادَةٍ.

إِنَّمَا الْعُقُوبَةُ وَالْإِثْمُ عَلَى الَّذِينَ يَعْتَدُونَ عَلَى النَّاسِ فِي دِمَائِهِمْ
أَوْ أَمْوَالِهِمْ، أَوْ أَعْرَاضِهِمْ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَيَتَجَاوِزُونَ
الْحَدَّ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالْكَفْرِ أَوْ الْمَعَاصِي، أَوْ التَّكْبُرِ عَلَى

النَّاسِ، وَطَلَّبِ الْإِسْتِعْلَاءَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْلَيْتُكَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَذَابٌ مُوجِعٌ مُؤَلَّمٌ.

وَمَنْ صَبَرَ عَلَى مَا يَنَالُهُ مِنَ أَذَى النَّاسِ، وَتَغَاضَى عَنْ إِسَاءَتِهِمْ وَتَسَامَحَ، فَلَمْ يَنْتَصِرْ لِنَفْسِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ: فَإِنَّ صَبْرَهُ وَغُفْرَانَهُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَشْكُورَةِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي حَثَّ اللَّهُ عَلَيْهَا وَأَكْدَّهَا وَعَزَّمْ عَلَى عِبَادِهِ الْعَمَلَ بِهَا، وَجَعَلَ عَلَيْهَا ثَوَابًا جَزِيلًا وَثَنَاءً جَمِيلًا.

وَمَنْ يُضِلُّهُ اللَّهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بِسَبَبِ ظُلْمِهِ، فَلَيْسَ لَهُ أَيْ وَلِيٌّ يَتَوَلَّاهُ فِيهِدِيهِ أَوْ يَنْصُرَهُ بَعْدَ إِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَتَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ -يَا مُحَمَّدٌ- يَقُولُونَ حِينَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَلْ لَنَا طَرِيقٌ أَوْ وَسِيلَةٌ لِلرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا؛ لِنَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ؟

وَتَرَى الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَرَّضُونَ عَلَى النَّارِ قَبْلَ دُخُولِهِمْ فِيهَا سَاكِنِينَ خَاضِعِينَ؛ لِمَا اعْتَرَاهُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، يُسَارِقُونَ النَّظَرَ إِلَى النَّارِ حِينَ يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا؛ مِنْ شِدَّةِ ذُلِّهِمْ وَخَوْفِهِمْ، وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ الْخَاسِرِينَ فِي الْحَقِيقَةِ هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحُرْمَانِهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَاسْتِحْقَاقِهَا دُخُولَ النَّارِ، وَخَسِرُوا أَهْلِيَهُمْ بِفُقْدَانِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُسْتَمِرٍّ فِي النَّارِ، فَلَا يَنْقَطِعُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ أَبَدًا.

وَمَا كَانَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْ أَوْلِيَاءُ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ يُضِلُّهُ اللَّهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ فَمَا لَهُ مِنْ طَرِيقٍ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ.

أَجِيبُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- رَبَّكُمْ، فَآمِنُوا بِهِ وَأَطِيعُوهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا شَيْءَ يَرُدُّهُ وَيَمْنَعُ مَجِيئَهُ بَعْدَ أَنْ حُكِمَ

الله به، ليس لكم أي مكان تلجؤون إليه هرباً من عذاب الله تعالى يوم القيامة، وما لكم من إنكار لما جُوزيتم به، بل تعترفون بذنوبكم، ولا أحد يُنكر ما نزل بكم، ويدفعه عنكم.

فإن أعرض المشركون عن الاستجابة لربهم فما أرسلناك - يا محمد - رقيباً عليهم تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها، ما عليك إلا أن تبلغ الناس ما أمرك الله بتبليغه من الرسالة، وليس عليك هدايتهم ولا حسابهم، وإنا إذا أعطينا الإنسان نعمةً منا فرح بها واطمأن، وأعرض عن الله المنعم بها، فلم يشكره عليها! وإن نضب الناس شدةً وبلاءً بسبب ذنوبهم، فإن الإنسان جحود لما تقدم من نعم الله عليه.

لله وحده ملك السموات وملك الأرض، وله وحده التصرف في سلطانه الواسع بما يشاء، يخلق ما يشاء خلقه، يعطي لمن يشاء من خلقه إناناً فقط، ويعطي لمن يشاء من خلقه ذكوراً فقط. أو يقرن الله لمن يشاء من خلقه بين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء من الأزواج عقيماً لا يولد له، إن الله بالغ العلم بكل شيء، ومن ذلك علمه تعالى بما يخلق، وهو بالغ القدرة على كل شيء، ومن ذلك قدرته على خلق ما يشاء.

وما ينبغي لبشر أن يكلّمه الله في الدنيا إلا وحياً، أو يكلّمه الله جهراً من وراء حجاب، بحيث يسمع كلام الله ولا يراه، كما كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام، أو يكلّمه الله تعالى بواسطة ملك يرسله الله، فيوجي إلى المرسل إليه ما يشاء الله أن يوحيه، كجبريل عليه السلام، إن الله سبحانه عليّ بذاته فوق خلقه، وعليّ بصفاته عن كل عيب ونقص، قد قهر كل شيء،

حَكِيمٌ فِي شَرِّعِهِ وَصُنْعِهِ، وَفِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ.

وَمِثْلَ ذَلِكَ الْإِيحَاءُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ مِنْ أَمْرِنَا -يَا مُحَمَّدُ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْكَ أَيُّ شَيْءٍ الْقُرْآنُ، وَأَيُّ شَيْءٍ الْإِيمَانُ وَشَرَائِعُهُ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَلَكِنْ جَعَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ نُورًا لِلنَّاسِ تَزُولُ بِهِ ظُلُمَاتُ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَالشَّكِّ وَالْجَهْلِ؛ فَتَهْدِي بِهِ إِلَى الْحَقِّ مَنْ نَشَاءُ هِدَايَتَهُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ -يَا مُحَمَّدُ- لَتُرْشِدُ النَّاسَ وَتَدْعُوهُمْ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.

تَدْعُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، الْمُنْتَصِرِفِ فِيهِمَا وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَلَا إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ تَرْجِعُ جَمِيعُ الْأُمُورِ.

هَذَانِ الْحَرْفَانِ اللَّذَانِ افْتُخِحَتْ بِهِمَا هَذِهِ السُّورَةُ وَغَيْرُهَا مِنْ الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ الَّتِي تَأْتِي لِبَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ؛ حَيْثُ تُظْهَرُ عَجْزُ الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا.

أَقْسِمُ بِالْكِتَابِ الْمَوْصَحِ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ. إِنَّا جَعَلْنَا الْقُرْآنَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ؛ لَعَلَّكُمْ تَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ وَتَتَدَبَّرُونَهُ.

وَإِنَّ الْقُرْآنَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدَنَا ذُو عُلُوٍّ فِي مَحَلِّهِ وَقَدَرِهِ وَشَرَفِهِ، وَذُو حِكْمَةٍ وَإِحْكَامٍ؛ فَلَا يَعْثُرِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا اضْطِرَابٌ، وَلَيْسَ فِيهِ نَقْصٌ، وَلَا لَبْسٌ فِيهِ وَلَا زَيْعٌ.

أَفَنَتْرُكُ إِنزَالَ الْقُرْآنِ إِعْرَاضًا عَنْكُمْ، وَنُهْمِلُكُمْ فَلَا نَأْمُرُكُمْ وَلَا نَنْهَاجُمْ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْكُمْ -أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ- قَوْمٌ مُعْرِضُونَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مُجَاوِزُونَ لَهُ؟! وما أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ لِدَعْوَةِ أَقْوَامِهِمْ إِلَى الْحَقِّ!

وما يَأْتِي نَبِيٍّ إِلَى قَوْمٍ إِلَّا كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ! فَأَهْلَكْنَا أَوْلَئِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالرُّسُلِ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ الْمُكَذِّبِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَلَنْ نَعْجِزَ كَذَلِكَ عَنْ إِهْلَاكِهِمْ إِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَوَقَعَ إِهْلَاكُ اللَّهِ لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِهِمْ؛ فَصَارُوا عِبْرَةً وَنَكَالًا لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَمِثَالًا يَرْتَدِّعُ بِهِ غَيْرُهُمْ؛ فَلْيَحْذَرِ كُفَّارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَسِيرُوا سِيرَتَهُمْ؛ فَيُصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ.

وَلَئِنْ قُلْتَ لِلْمُشْرِكِينَ -يَا مُحَمَّدُ: مَنْ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَخَلَقَ الْأَرْضَيْنِ؟ لَيَقُولَنَّ مِنْ قَوْمِهِمْ: خَلَقَهُنَّ اللَّهُ وَخَدَهُ، الْعَزِيزُ ذُو الْقُدْرِ الْعَظِيمِ، الْقَاهِرُ الْغَالِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمُمْتَنِعُ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، الْعَلِيمُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ثَابِتَةً مُمَهَّدَةً، تَتَمَكَّنُونَ فِيهَا مِمَّا تُرِيدُونَ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا طُرُقًا يَسَّرَ لَكُمْ الْمَشْيَ فِيهَا؛ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ بِهَا.

وَالَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَطَرًا بِمِقْدَارِ حَاجَةِ النَّاسِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَنْعَامِ؛ لِيَحْصَلَ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ دُونَ زِيَادَةِ مُهْلِكَةٍ، أَوْ نُقْصَانٍ مُضِرٍّ، فَأَحْيَيْنَا بِذَلِكَ الْمَطَرِ بَلَدَةً مُجْدِبَةً لَا نَبَاتَ بِهَا وَلَا زَرْعَ، كَمَا أَحْيَيْنَا بِالْمَطَرِ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ، وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا نَبَاتَهَا، كَذَلِكَ

يُحييكم الله -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوْتِكُمْ، فيُخرجُكم يومَ القيامةِ مِنْ قُبُورِكُمْ.

واللهُ تعالى هو الَّذي خَلَقَ الأصنافَ جميعَها، وجَعَلَ لَكُمْ سُفُنًا تَرْكَبُونَهَا فِي الْبَحْرِ، وَأَنْعَامًا تَرْكَبُونَهَا فِي الْبَرِّ؛ تَنْفَلِكُمْ إِلَى حَيْثُ أَرَدْتُمْ.

لِنَسْتَقِرُّوا مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِعِينَ عَلَى ظُهورِ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ، ثُمَّ تَذْكُرُوا بِقُلُوبِكُمْ -أيُّها النَّاسُ- نِعْمَةَ رَبِّكُمْ بِتَيْسِيرِهِ لَكُمْ مَا تَرْكَبُونَهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، إِذَا اسْتَقَرَّرْتُمْ عَلَيْهِ، وَتَقُولُوا بِالسِّنِّتِكم: تَنْزَرَهُ اللهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمالِهِ؛ الَّذي ذَلَّلَ لَنَا هَذَا الَّذي تَرْكَبُهُ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا كُنَّا لِنَتْلِكَ الْمَرَاكِبِ بِمُطِيقِينَ وَلَا قَادِرِينَ عَلَى تَذليلِها وَرُكُوبِها وَقيادِها لولا أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ سَخَّرَها لَنَا.

وإِنَّا إِلَى رَبِّنا لَرَّا جَعُونَ بعدَ مَوْتِنَا لِلْحِسَابِ وَالْجَزاءِ. وَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ لِلَّهِ بَعْضًا مِنْ خَلْقِهِ، فَقَالُوا: الْمَلائِكَةُ بَناتُ اللهِ! إِنَّ الْإِنسانَ لَشَدِيدُ الْجُحُودِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الْكُفْرانِ لَها.

أَمْ اتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِهِ بَناتٍ مِنْ خَلْقِهِ كما زَعَمْتُمْ -أيُّها الْمُشْرِكُونَ- وَأَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَهُنَّ لأنْفُسِكُمْ، وَاخْتَصَّكُمْ أَنْتُمْ بِالْبَنِينَ فَجَعَلَهُمْ لَكُمْ؟!!

وَإِذَا أُخْبِرَ أَحَدُ أَوْلادِك -الَّذِينَ قالُوا: الْمَلائِكَةُ بَناتُ اللهِ- بِوِلادَةِ امْرَأَتِهِ لِمَا نَسَبُوهُ لِلَّهِ تعالى مِنَ الْبَناتِ، ظَلَّ وَجْهُهُ أَسْوَدَ اللَّوْنِ، وَهُوَ مُمْتَلِئٌ غَيْظًا؛ فَهَمْ يَأْنِفُونَ مِنَ الْبَناتِ وَيَكْرَهُونَهُنَّ، وَمَعَ ذَلِكَ يَنْسُبُونَهُنَّ لِلَّهِ تعالى!

أَوْجَعُوا وَلَدًا لِّلَّهِ مَن شَأْنُهُ أَنْ يُرَبِّيَ فِي الرِّينَةِ، وَإِذَا حُوصِمَ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِقَامَةِ حُجَّتِهِ، وَدَفَعَ مَا يُجَادِلُهُ بِهِ حَصْمُهُ لِنُقْصَانِ عَقْلِهِ، وَضَعْفِ رَأْيِهِ!

وَاعْتَقَدَ كُفَّارُ الْعَرَبِ الْمَلَائِكَةَ -الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ- إِنَاتًا، فَهَلْ حَضَرَ أَوْلَئِكَ الْمُشْرِكُونَ خَلْقَ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ وَشَاهَدُوهُ فَعَرَفُوا أَنَّهُمْ إِنَاتٌ؟! سَتَكُتَبُ شَهَادَةُ أَوْلَئِكَ الزَّاعِمِينَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُسْأَلُونَ فِي الْآخِرَةِ عَنْ شَهَادَتِهِمْ تِلْكَ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهَا بُرْهَانٌ، وَيُعَاقَبُونَ عَلَى افْتِرَائِهِمْ هَذَا.

وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَا هُمْ، وَأَصْرَفْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَتَرَكُهُ إِيَّانَا دَلِيلٌ عَلَى رِضَاهِ مِنَّا بِعِبَادَتِهِمْ، وَلَيْسَ لِلْمُشْرِكِينَ عِلْمٌ بِصِحَّةِ مَا قَالُوهُ وَاحْتَجُّوا بِهِ، إِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ كَذِبًا وَظَنًّا مِنْهُمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ.

فَهَلْ أَعْطَيْنَا أَوْلَئِكَ الْمُتَخَرِّصِينَ كِتَابًا يُثَبِّتُ صِحَّةَ دَعْوَاهُمْ مِنْ قَبْلِ نَزُولِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَهَمَ بِذَلِكَ الْكِتَابِ مُتَمَسِّكُونَ، وَعَلَى الْعَمَلِ بِهِ ثَابِتُونَ؟!!

لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُمْ، وَإِنَّمَا حُجَّتُهُمُ الْبَاطِلَةُ هِيَ تَقْلِيدُ آبَائِهِمْ، فَيَقُولُونَ: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى ذَلِكَ الدِّينِ وَالْمُعْتَقَدِ، وَنَحْنُ لَهُمْ مُتَّبِعُونَ.

وَكَمَا فَعَلَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ فَعَلَ كُفَّارُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَقَالُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ؛ فَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ -يَا مُحَمَّدٌ- رَسُولًا إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ لِيُنْذِرَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ إِلَّا قَالَ رُؤُسَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمُ الْمُنْعَمُونَ الَّذِينَ أُطْعِمَتْهُمْ الدُّنْيَا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى دِينٍ غَيْرِ الَّذِي نَدْعُوْنَا إِلَيْهِ، وَإِنَّا مُتَّبِعُونَ لَطَرِيقَتِهِمْ، فَلَا نَنْحَرِفُ عَنْهَا.

قال الرَّسُولُ لِقَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ:
اتَّبِعُونِ آبَاءَكُمْ عَلَى الضَّلَالِ وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِدِينٍ أَهْدَى إِلَى الْحَقِّ
مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ؟! قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّا بِالَّذِي
أَرْسَلْتُمْ بِهِ جَادُونَ مُنْكَرُونَ، وَلَدِينِ آبَائِنَا مُتَّبِعُونَ.
فَعَاقَبْنَاهُمْ، فَانْظُرْ -يَا مُحَمَّدُ- كَيْفَ صَارَ آخِرُ أَمْرِ الْمَكْذِبِينَ
إِلَى هَلَاكِهِمْ وَبَوَارِهِمْ!

وَإِذْكُرْ -يَا مُحَمَّدُ- حِينَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ:
إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَأَبْغَضُهَا وَلَا
أَعْبُدُهَا.

أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ إِلَّا الَّذِي خَلَقَنِي، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ
وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ، فَأَنَا أَعْبُدُهُ وَلَا أَتَبَرَّأُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ سَيُرْشِدُنِي وَيُوقِفُنِي
لِلْحَقِّ.

وَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي ذُرِّيَّتِهِ؛ رَجَاءً أَنْ
يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ.

لَمْ يَحْصُلْ مَا رَجَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ رُجُوعِ جَمِيعِ عَقِبِهِ إِلَى كَلِمَةِ
التَّوْحِيدِ الَّتِي جَعَلَهَا فِيهِمْ -وَمِنْهُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَأَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ-
؛ فَقَدْ مَتَّعَهُمُ اللَّهُ، فَاسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ، وَعَافَاهُمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ
وَالنِّقَمِ؛ فَأَبْطَرَهُمْ ذَلِكَ وَزَهَّدَهُمْ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَتَمَادَوْا فِي
بَاطِلِهِمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْحَقِّ، وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى رَسُولٌ ظَاهِرٌ أَمْرُهُ، وَمُبَيِّنٌ لِرِسَالَتِهِ وَأَحْكَامِ دِينِهِ، مُظْهِرٌ
لِلْحَقِّ وَحُجَجِهِ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَلَمَّا جَاءَ الْقُرْآنُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ يَسْحَرُ مُحَمَّدٌ
بِهِ النَّاسَ، وَلَنْ نُؤْمِنَ بِهِ!

وقال مُشْرِكُو قُرَيْشٍ أَيْضًا اعْتِرَاضًا مِنْهُمْ عَلَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ حَقًّا فَلِمَ لَمْ يُنْزَلْ عَلَى رَجُلٍ مِنْ وَجْهَاءٍ وَأَغْنِيَاءٍ مَكَّةَ أَوْ الطَّائِفِ؟

هَلْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُقْتَرِحُونَ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ هُمْ مَنْ يَضَعُونَ النُّبُوَّةَ حَيْثُ شَاءُوا، أَمْ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِذَلِكَ؟! نَحْنُ تَوَلَّيْنَا قِسْمَةَ الْأَرْزَاقِ بَيْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ فَوَسَّعْنَا عَلَى بَعْضٍ، وَضَيَّقْنَا عَلَى بَعْضٍ، بِحَسَبِ حِكْمَتِنَا، وَرَفَعْنَا فِي الدُّنْيَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ؛ فَمِنْهُمْ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لِيَسْتَخْدِمَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيَكُونَ بَعْضُهُمْ سَبَبًا لِمَعَاشِ بَعْضٍ، فَكَمَا تَوَلَّى اللَّهُ قَسَمَ مَعَاشِهِمْ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ فَكَذَلِكَ لَمْ يُفَوِّضْ إِلَيْهِمْ أَمْرَ النُّبُوَّةِ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ مَنْ يَصْطَفِي مَنْ يَشَاءُ لِرِسَالَتِهِ؛ فَلَا وَجْهَ لَاعْتِرَاضِهِمْ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ- خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَمْوَالِهَا الْفَانِيَةِ وَمَتَاعِهَا الزَّائِلِ!

وَلَوْلَا كِرَاهَتُنَا أَنْ يَرْغَبَ النَّاسُ فِي الْكُفْرِ إِذَا رَأَوْا مَا أُوتِيَهُ الْكُفَّارُ مِنْ سَعَةٍ وَقُدْرَةٍ، فَيَصِيرُوا كُلُّهُمْ كُفَّارًا؛ لَجَعَلَ اللَّهُ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِهِ بُيُوتًا ذَاتَ سُقُوفٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَصَاعِدَ وَمَرَاقِي يَرْتَفِعُونَ بِهَا.

وَلَجَعَلَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا، وَلَجَعَلَ لَهُمْ أَسْرَةً يَتَكُونُونَ عَلَيْهَا. وَلَجَعَلَ لَهُمْ ذَهَبًا؛ فَلَوْلَا يَعْتَقِدُ النَّاسُ أَنَّهُمْ يَنَالُونَ ذَلِكَ بِالْكَفْرِ، فَيَكْفُرُونَ جَمِيعًا؛ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، لَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ بِهِ، وَمَا كُلُّ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ إِلَّا عَرَضٌ دُنْيَوِيٌّ زَائِلٌ لَا يَبْقَى، وَأَمَّا نَعِيمُ الْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ- فَهُوَ خَاصٌّ بِالَّذِينَ

امْتَلُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالطَّاعَاتِ، واجْتَنِبُوا مَا نَهَى
عنه مِنَ الشِّرْكِ وَالسَّيِّئَاتِ.

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرَّحْمَنُ يُسَلِّطِ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْهِ شَيْطَانًا؛ جزاء إِعْرَاضِهِ عنه، فَيَصِيرُ الشَّيْطَانُ قَرِينًا لَهُ لَا
يُفَارِقُهُ.

وَأِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْحَقِّ الْمَوْصِلِ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى وَإِلَى جَنَّتِهِ، وَيَصْرِفُونَهُمْ عنه، ومع ذلك يَحْسَبُ قُرْأَاءُ
الشَّيْطَانِ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ!

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا الْمُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ،
قَالَ لِقَرِينِهِ الشَّيْطَانِ: وَدِدْتُ أَنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ، فَبِئْسَ الصَّاحِبُ لِي أَنْتَ -أَيُّهَا الشَّيْطَانُ!

يُقَالُ لَهُمْ: وَلَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ الْعَذَابَ فِي هَذَا الْيَوْمِ -بسببِ
ظُلْمِكُمْ- اشْتِرَاكُكُمْ فِي هَذَا الْعَذَابِ.

لَا تَسْتَطِيعُ -يَا مُحَمَّدُ- أَنْ تَجْعَلَ الْكُفَّارَ يَنْتَفِعُونَ بِالسَّمَاعِ مِنْكَ؛
فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرْشِدَ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ مَنْ
أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ عَنْ رُؤْيَا هَذَا الْحَقِّ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْدِيَ مَنْ
هُوَ فِي ضَلَالٍ ظَاهِرٍ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى.

فَإِنْ نُخْرِجْكَ -يَا مُحَمَّدُ- مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِ مُشْرِكِي قَوْمِكَ -بِمَوْتِ
أَوْ غَيْرِهِ- دُونَ أَنْ تَرَى عَذَابَهُمْ، فَنَحْنُ مُنْقِمُونَ مِنْهُمْ بَعْدَ فِرَاقِكَ
لَا مَحَالَةَ.

وَأِنْ أَرَيْنَاكَ مَا وَعَدْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فَإِنَّا قَادِرُونَ عَلَيْهِمْ، فَلَنْ
يُعْجِزُونَا، أَوْ يُفْلِتُوا مِنَّا.

فَتَمَسَّكَ -يا مُحَمَّدٌ- بِقُوَّةِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ، وَاتَّبَثَ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ، إِنَّكَ عَلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، مُوَصِّلٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ.

وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَشَرَفٌ لَكَ -يا مُحَمَّدٌ- وَلِقَوْمُكَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُوَ مَوْعِظَةٌ وَتَذَكِيرٌ لَكُمْ، وَسَوْفَ يَسْأَلُكُمْ اللَّهُ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ.

وَاسْأَلْ -يا مُحَمَّدٌ- الرُّسُلَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ إِلَى أَقْوَامِهِمْ مِنْ قَبْلِكَ: هَلْ شَرَعْنَا وَأَمَرْنَا بِعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ؟!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِمُعْجَزَاتِنَا الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْرَافِ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: إِنِّي رَسُولٌ إِلَيْكُمْ مِنَ الْخَالِقِ الْمَالِكِ، الرَّازِقِ الْمَدَبِّرِ لَجَمِيعِ الْعَالَمِينَ.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِمُعْجَزَاتِنَا إِذَا فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَضْحَكُونَ مِنْهَا؛ سُخْرِيَّةً وَاسْتِهْزَاءً!

وَمَا نُرِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مُعْجِزَةً إِلَّا هِيَ أَعْظَمُ مِنَ الَّتِي قَبَّلُهَا، وَمَعَ ذَلِكَ كَذَّبُوا بِجَمِيعِ الْآيَاتِ وَاسْتَخَفُّوا بِهَا؛ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا! وَابْتَلَيْنَاهُمْ بِنِقَمٍ وَمِحْنٍ -كَالْقَحْطِ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ-؛ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ، فَيَرْجِعُونَ مِنْ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَمَعْصِيَتِهِ، إِلَى تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ لِمُوسَى حِينَ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ: يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ؛ لِيَكْشِفَ عَنَّا الْعَذَابَ، إِنَّا لَمُتَّبِعُونَكَ -يا مُوسَى- إِنْ كَشَفَ رَبُّكَ عَنَّا الْعَذَابَ، فَتُؤْمِنُ بِهِ وَتُؤَجِّدُهُ!

فَلَمَّا رَفَعْنَا الْعَذَابَ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ؛ لِيَهْتَدُوا إِلَى الْحَقِّ كَمَا وَعَدُوا مُوسَى، نَكَثُوا فَتَقَضَّوْا عَهْدَهُمْ، وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ!

ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ الْقَبِيطِ مُفْتَخِرًا مُتَبَجِّحًا، فَقَالَ: يَا قَوْمِ
أَلَيْسَ لِي وَحْدِي مُلْكُ مِصْرَ كُلِّهَا، لَا يُنَازِعُنِي أَحَدٌ فِي التَّصَرُّفِ
فِيهَا؟! وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ الْمَتَفَرِّعَةُ مِنْ نَهْرِ النَّيْلِ تَجْرِي بَيْنَ يَدَيَّ فِي
الْبَسَاتِينِ وَالْقُصُورِ وَغَيْرِهَا؟! أَفَلَا تُبْصِرُونَ -يَا قَوْمَ- مَا أَنَا فِيهِ
مِنَ الْمُلْكِ وَالْعِظَمَةِ، وَالْقُوَّةِ وَالنَّعِيمِ؟!

بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ ضَعِيفٌ ذَلِيلٌ، وَلَا يَكَادُ يُعْرَبُ
عَمَّا يُرِيدُ بوضوح؛ لِعِيٍّ مَنْطِقِهِ، وَقَلَّةٍ فَصَاحَتِهِ!

فَهَلَّا أُلْقِيتَ عَلَى مُوسَى -إِنْ كَانَ رَسُولًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
كَمَا يَزْعُمُ- أَسَاوِرُ مِنْ ذَهَبٍ يَتَخَلَّى بِلُبْسِهَا فِي يَدَيْهِ! أَوْ هَلَّا جَاءَ
الْمَلَائِكَةُ مُتَتَابِعِينَ قَدْ اقْتَرَنَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، يَشْهَدُونَ لِمُوسَى
بِصِدْقِهِ، وَيُعِينُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ!

فَاسْتَخَفَّ فِرْعَوْنُ عُقُولَ قَوْمِهِ، فَصَدَّقُوا بَاطِلَهُ وَشَبَّهَهُ،
وَاسْتَجَابُوا لَهُ! لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا كَافِرِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى، خَارِجِينَ عَنْ
طَاعَتِهِ، خَذَلَهُمُ اللَّهُ فَأَطَاعُوا فِرْعَوْنَ حَيْثُ زَيْنَ لَهُمُ الشَّرُّ.

فَلَمَّا أَغْضَبْنَا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ أَوْقَعْنَا بِهِمْ عُقُوبَتَنَا الْعَاجِلَةَ فِي
الدُّنْيَا، فَأَغْرَقْنَاهُمْ جَمِيعًا فِي الْبَحْرِ، فَلَمْ نُنَجِّ مِنْهُمْ أَحَدًا.

فَجَعَلْنَاهُمْ مُتَقَدِّمِينَ فِي الْهَلَاكِ، قُدُوةً لِمَنْ عَمِلَ بِعَمَلِهِمْ مِنْ
الْكَفَّارِ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ، وَعِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ،
فَمَنْ عَمِلَ بِمِثْلِ عَمَلِهِمْ جُوزِي بِجَزَائِهِمْ.

وَلَمَّا ضَرَبَ الْمُشْرِكُونَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَثَلًا لِلْأَلْهَةِ الَّتِي
تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى -حَيْثُ عَبَدَهُ النَّصَارَى-؛ لِيُحَاجُّوا بِهِ
مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ كُلَّ مَا عُبدَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَمَالُهُ النَّارُ: إِذَا قَوْمُكَ -يَا مُحَمَّدُ- قَدْ أَحْدَثُوا جَلْبَةً

وضَجِجًا وضَجِجًا؛ فَرَحًا وسُرورًا؛ لَظَّتْهُم بِأَنَّهُمْ قَدْ أَفْحَمُوا
بِتِلْكَ الشَّبْهَةِ الْبَاطِلَةِ، وَأَنَّهُم أَلْزَمُوا بِحُجَّتِهِم الْوَاهِيَةَ!

وَقَالَ أَوْلَئِكَ الْمُشْرِكُونَ: أَلَلْهُنَا خَيْرٌ أَمْ عِيسَى، فَإِنْ كَانَ
عِيسَى يَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ رَضِينَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ وَالْهُنَّا مَعَهُ؛ لِأَنَّهُ
خَيْرٌ مِنْ آلِهَتِنَا، مَا ذَكَرَ لَكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ -يَا مُحَمَّدُ- هَذَا الْمَثَلَ
بِعِيسَى وَتَشْبِيهِهِ بِآلِهَتِهِمْ إِلَّا مِنْ بَابِ الْمُغَالَطَةِ بِالْبَاطِلِ؛ لِقَصْدِ
مُغَالِبَتِكَ، فَهَمْ لَا يُرِيدُونَ بِجِدَالِهِمْ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَاتِّبَاعَهُ، وَإِنَّمَا
هُمْ قَوْمٌ شَدِيدُو الْخُصُومَةِ وَالْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ، فَيَرْتُدُّونَ الْحَقَّ مَعَ
ظُهُورِهِ لَهُمْ!

مَا عِيسَى إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِنَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ، وَالتَّنْبُؤَةِ
وَالرَّسَالَةِ، وَتَأْيِيدِهِ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَجَعَلْنَاهُ آيَةً وَدَلَالَةً وَحُجَّةً لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ، يَسْتَدِلُّونَ بِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى
خَلْقِ مَا يَشَاءُ، وَلَيْسَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمُ النَّصَارَى!
وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا بَدَلًا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً يَسْكُنُونَ فِي الْأَرْضِ،
فَيَخْلُقُونَ فِيهَا.

وَإِنَّ نُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَعَلَامَةٌ عَلَى
قُرْبِ مَجِيءِ السَّاعَةِ، فَلَا تَشْكُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- فِي مَجِيءِ الْقِيَامَةِ؛
فَإِنَّهَا آتِيَةٌ لَا مَحَالَةَ، وَأَطِيعُونِي فِيمَا أَمُرُكُمْ بِهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ؛
فَهَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ، مُوَصِّلٌ
إِلَى الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ.

وَلَا يَصْرِفْتَكُمْ الشَّيْطَانُ بَوَسَاوِسِهِ عَنْ هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛
فَتَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ظَاهِرٌ الْعَدَاوَةِ، حَرِيصٌ
عَلَى إِضْلَالِكُمْ، وَبَازِلٌ جُهْدَهُ فِي إِهْلَاكِكُمْ.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ عَلَى صِدْقِهِ، قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ، وَجِئْتُكُمْ لِأَبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ مِنْ أُمُورِكُمْ، فَأَوْضَحَ لَكُمْ الصَّوَابَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ بِامْتِثَالِ مَا يُأْمُرُكُمْ بِهِ، وَاجْتَنَابِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

قال عيسى: إِنَّ اللَّهَ الَّذِي يَنْبَغِي إِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ؛ فَاعْبُدُوهُ وَخُدَّه، وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، وَأَنَا وَأَنْتُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي وُجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْنَا، وَعِبَادَةُ اللَّهِ وَخُدَّه وَطَاعَتُهُ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ، مُوصِلٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ.

فَاخْتَلَفَتْ فِرْقُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي عِيسَى؛ فَكَفَرَ بِهِ الْيَهُودُ، وَغَلَا فِيهِ النَّصَارَى، فَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ تَعَالَى، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَزَعَمَ آخَرُونَ مِنْهُمْ أَنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ -تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوءًا كَبِيرًا-، فَوَيْلٌ لَأُولَئِكَ الْكُفَّارِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي شَأْنِ عِيسَى مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ!

مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَأْتِيهِمْ فَجَاءَةً وَهُمْ غَافِلُونَ. الْأَصْدِقَاءُ الْمُتَصَاحِبُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا يَكُونُ بَعْضُهُمْ أَعْدَاءَ لِبَعْضٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ، فَتَأَخَّوْا فِي الدُّنْيَا، وَتَصَاحَبُوا عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأُولَئِكَ الْمُتَّقِينَ: يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ مُسْتَقْبَلٍ؛ فَإِنِّي أُؤَمِّنُكُمْ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْعَذَابِ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ عَلَى مَا مَضَى؛ فَأَنْتُمْ مُقَدِّمُونَ عَلَى مَا يَسُرُّكُمْ.

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَعَمِلُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ، وَكَانُوا دَوْمًا خَاضِعِينَ لِلَّهِ، مُنْقَادِينَ لِشَرِّعِهِ.
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ، فَتُكْرَمُونَ فِيهَا، وَتُسَرُّونَ سُرُورًا بِالْغَا.

يُطَافُ عَلَيْهِمْ فِي الْجَنَّةِ بِقِصَاعٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الطَّعَامِ، وَبِأَوْعِيَةٍ لِلشَّرْبِ فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الشَّرَابِ، وَفِي الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُهُمْ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ وَالْمَلْبُوسَاتِ، وَالْمَسْمُوعَاتِ وَالْمَرْنِيَّاتِ، وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَنَاكِحِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَذَّاتِ وَالْمَسْرَّاتِ، وَفِي الْجَنَّةِ مَا تَلْتَذُّ بِرُؤْيَيْتِهِ أَعْيُنُهُمْ؛ لِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ، وَأَنْتُمْ فِي الْجَنَّةِ مَآكِنُونَ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا عَنْكُمْ، وَلَا أَنْتُمْ مِنْهَا تُخْرَجُونَ.

يُقَالُ لَهُمْ: وَتِلْكَ هِيَ الْجَنَّةُ الْعَالِيَةُ الْمَقَامِ الَّتِي أَعْطَاكُمْ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.
لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ تَأْكُلُونَ مِنْهَا مَا اسْتَهَيْتُمْ وَاخْتَرْتُمْ.

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا فِي الدُّنْيَا بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ، وَتَكْذِيبِ رَسُولِهِ، وَعِصْيَانِ أَمْرِهِ: فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ مَآكِنُونَ أَبَدًا.
لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَوْ سَاعَةً وَاحِدَةً، وَهُمْ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ آيسُونَ مِنَ النَّجَاةِ، غَيْرُ رَاجِينَ لِلْفَرَجِ.
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرِّكَ بِاللَّهِ، وَجُحُودِهِمْ آيَاتِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ، وَعِصْيَانِهِمْ لأَمْرِهِ.

وَنَادَى الْمُجْرِمُونَ -وَهُمْ فِي النَّارِ- مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ، فَقَالُوا: يَا مَالِكُ، لِيَمِثَّنَا رَبُّكَ فَيَقْبِضَ أَرْوَاحَنَا؛ لِنَسْتَرِيحَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنْ

العَذَابِ! قَالَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ: إِنَّكُمْ بَأَقُونَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا أَبَدًا.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ -أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ- كَارِهُونَ لِمَا جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُنَا مِنَ الْحَقِّ، فَلَمْ تَقْبَلُوهُ، وَلَمْ تَخْضَعُوا لَهُ وَتَتَّقَادُوا إِلَيْهِ!

أَمْ أَحْكَمَ أَوْلَئِكَ الْمُشْرِكُونَ أَمْرًا يَكِيدُونَ بِهِ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ، وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى كِرَاهَتِهِ؟! فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُحْكَمٌ أَمْرًا لِكَيْدِهِمْ بِهِ! أَمْ يَظُنُّ أَوْلَئِكَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ مَا يُسِرُّونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَمَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْكَلَامِ الْخَفِيِّ، فَلَا نَأْخُذْهُمْ بِذَلِكَ؟! بَلَى! نَحْنُ نَسْمَعُ مَا يُسِرُّونَ، وَمَا بِهِ يَتَنَاجَوْنَ، وَمَلَايَكُنَّا الْحَفَظَةُ عِنْدَهُمْ يَكْتُبُونَ جَمِيعَ أَحَادِيثِهِمْ، وَسُجُورَ عَلَيْهِمَ!

قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ جَدًّا: إِنْ ثَبِتَ أَنَّ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا بُرْهَانٍ صَحِيحٍ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لَذَلِكَ الْوَلَدِ. تَنْزَهُ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِكَمَالِهِ تَعَالَى، وَمِنْ ذَلِكَ دَعَاوَاهُمْ أَنَّ لَهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ.

فَاتْرُكْ -يَا مُحَمَّدٌ- هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَخُوضُوا فِي بَاطِلِهِمْ وَجَهْلِهِمْ، وَيَلْعَبُوا فِي دُنْيَاهُمْ إِلَى أَنْ يُلَاقُوا الْيَوْمَ الَّذِي يَحِلُّ فِيهِ عَذَابُهُمْ وَهَلَاكُهُمْ!

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ هُوَ الْبَالِغُ الْحَكِيمُ، فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ اللَّائِقِ بِهِ، الْبَالِغُ الْعِلْمِ، فَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

تعالى وتَقَدَّسَ وَكَثُرَ خَيْرُهُ وَإِحْسَانُهُ؛ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مُلْكُ جَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخَلْقِ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمَتَصَرِّفُ فِيهَا، وَهُوَ وَحْدَهُ مَنْ يَعْلَمُ وَقْتَ مَجِيءِ السَّاعَةِ، وَإِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ تَصِيرُونَ -أَيُّهَا النَّاسُ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَبْعَثُكُمْ لِلْحِسَابِ، وَيُجَازِي كُلًّا مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَعْبُدُهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الشَّفَاعَةَ لِأَحَدٍ عِنْدَ اللَّهِ، إِلَّا مَنْ أَقَرَّ مِنْهُمْ بِالْتَّوْحِيدِ لِلَّهِ -كَعِيسَى وَالْمَلَائِكَةِ-، وَهُمْ يَشْهَدُونَ بِذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ وَيَقِينٍ وَبَصِيرَةٍ، فَاللَّهُ يَأْذُنُ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَحِّدِينَ، فَتَنْفَعُ حِينَهَا شَفَاعَتُهُمْ.

وَأَلَيْسَ قُلْتُ -يَا مُحَمَّدٌ- لِلْمُشْرِكِينَ: مَنْ الَّذِي خَلَقَكُمْ؟ لَيَقُولَنَّ: خَلَقَنَا اللَّهُ وَحْدَهُ، فَكَيْفَ وَمِنْ أَيِّ جِهَةٍ يُصَرِّفُ الْمُشْرِكُونَ -مَعَ اعْتِرَافِهِمْ هَذَا- عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ، إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟! وَعِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عِلْمٌ قَوْلِ رَسُولِهِ -شَاكِيًا إِلَيْهِ تَكْذِيبَ قَوْمِهِ-: يَا رَبِّ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي جِئْتُهُمْ بِهِ!

فَاصْفَحْ -يَا مُحَمَّدٌ- عَنْ أَوْلَئِكَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَعْرِضْ عَنْ مُوَآخَذَتِهِمْ وَعِتَابِهِمْ، وَقُلْ لَهُمْ: سَلِمْتُمْ مِنَّا، فَلَا نُجِيبُكُمْ بِسُوءٍ، فَسَوْفَ يَعْلَمُ الْمُشْرِكُونَ حَقِيقَةَ مَا سَيَلْقَوْنَهُ؛ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ، وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى.

افْتَتَحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِهَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي تُسْتَفْتَحُ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ؛ لِبَيَانِ إِعْجَازِهِ، حَيْثُ تُظْهِرُ عَجْزَ الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا.

أَقْسَمُ بِالْقُرْآنِ الْوَاضِحِ الْمَوْضِحِ لِكُلِّ مَا يُحْتَاجُ إِلَى بَيَانِهِ.

إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ كَثِيرَةٍ الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، إِنَّا كُنَّا مُحَوِّفِينَ وَمُحَذِّرِينَ النَّاسَ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَنْ تَحُلَّ بِهِمْ عُقُوبَتُنَا إِنْ لَمْ يَتَوْبُوا مِنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعَصْيَانِهِمْ.

يُقَضَى وَيُبَيَّنُّ وَيُكْتَبُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ الْمُبَارَكَةِ كُلُّ أَمْرٍ مُحْكَمٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ.

حَالُ كَوْنِ ذَلِكَ الْأَمْرِ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَسُولًا يَتْلُو آيَاتِ اللَّهِ، وَيُبْلِغُ رِسَالَتَهُ.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ - يَا مُحَمَّدُ - بِعِبَادِهِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ لَأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

خَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالْمَالِكِ وَالْمُدَبِّرِ لَجَمِيعِ ذَلِكَ، إِنْ كُنْتُمْ مُتَحَقِّقِينَ بِذَلِكَ.

لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَهُوَ الْمَتَصَرِّفُ وَحْدَهُ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ؛ فَيُحْيِي مَا يَشَاءُ، وَيُمِيتُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَحْيَاءِ، فَهُوَ خَالِقُكُمْ وَمَالِكُكُمْ وَرَازِقُكُمْ أَنْتُمْ وَأَبَائُكُمْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.

لَيْسَ الْمُشْرِكُونَ مُوقِنِينَ بِحَقِيقَةِ مَا أَخْبَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَإِنَّمَا هُمْ مُنْعَمُونَ فِي شَكِّهِمْ، وَمُشْتَغَلُونَ بِاللَّعِبِ بِالْبَاطِلِ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ.

فَانْتَظِرْ - يَا مُحَمَّدُ - الْيَوْمَ الَّذِي تَأْتِي فِيهِ السَّمَاءُ بِدُخَانٍ ظَاهِرٍ. يُعْطِي ذَلِكَ الدُّخَانُ النَّاسَ وَيَعْمُهُمْ، فيقولون: هَذَا عَذَابٌ مُوجَعٌ شَدِيدٌ الْإِيلَامِ.

يقول الكافرون حين يُصِيبُهُمْ ذَلِكَ: يَا رَبَّنَا، ارْفَعْ عَنَّا عَذَابَكَ؛ فَإِنَّا مُؤْمِنُونَ بِكَ إِنْ كَشَفْتَ عَنَّا هَذَا الْعَذَابَ!

كَيْفَ يَتَسَنَّى لِلْكَفَّارِ التَّذْكَرُ وَالِاتِّعَاضُ عِنْدَ حُلُولِ ذَلِكَ الْعَذَابِ
بِهِمْ، وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ ظَاهِرٌ غَايَةَ الظُّهُورِ أَنَّهُ رَسُولٌ
مِنَ اللَّهِ، مُظْهِرٌ لَهُمُ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى؟!
ثُمَّ أَعْرَضَ الْكَفَّارُ عَنِ الرَّسُولِ، وَقَالُوا: هُوَ مُعَلَّمٌ عَلَّمَهُ أَحَدٌ
هَذَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ هُوَ مَجْنُونٌ وَلَيْسَ رَسُولًا كَمَا يَدَّعِي!
إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ عَنْكُمْ وَقَتًا قَلِيلًا، وَلَكِنَّ عَوْدَتَكُمْ -أَيُّهَا
الْمُشْرِكُونَ- إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ بَعْدَ كَشْفِ الْعَذَابِ
عَنْكُمْ: أَمْرٌ ثَابِتٌ مُؤَكَّدٌ!
يَوْمَ نَأْخُذُ الْمُشْرِكِينَ بِقُوَّةٍ وَأَخْذٍ عَنِيفٍ شَدِيدٍ؛ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ
مِنْهُمْ.

وَلَقَدْ اخْتَبَرْنَا وَابْتَلَيْنَا قَبْلَ كُفَّارِ قَوْمِكَ -يَا مُحَمَّدٌ- قَوْمَ فِرْعَوْنَ
مِنَ الْقِبْطِ، وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ.

فَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ: أَطْلِقُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ،
وَادْفَعُوهُمْ إِلَيَّ، إِنِّي مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْكُمْ، بِالْغِ الْأَمَانَةِ عَلَى
الرِّسَالَةِ الَّتِي أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَبْلِغَكُمْ إِيَّاهَا بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ وَلَا
كِتْمَانٍ.

وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَى اللَّهِ، فَتَكْفُرُوا بِهِ، وَتُخَالِفُوا أَمْرَهُ، إِنِّي آتِيكُمْ
بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ تُثَبِّتُ صِحَّةَ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَتُظْهِرُهُ.
وَإِنِّي اعْتَصَمْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ أَنْ تَصِلُوا إِلَيَّ بِسُوءٍ مِنْ
قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِمَا أَمَرْتُكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا
تَرْجُمُونِي، وَاتْرُكُونِي وَشَأْنِي، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِي.

فدعا موسى رَبَّهُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُتَّصِفُونَ بِالْإِجْرَامِ
وَعَرِيقُونَ فِيهِ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِمْ، فَأَفْعَلَ بِهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ.

فأجاب الله دُعَاءَ موسى، فقال له: سِرْ بعبادي مِنْ بني
إِسْرَائِيلَ لَيْلًا، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ سَيَتَّبِعُونَكَ وَيَطْلُبُونَكَ.

قال الله لموسى: وَاتْرُكِ الْبَحْرَ بَاقِيًا عَلَى هَيْئَتِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا
سَاكِنًا مُنْفَرَجًا مَفْتُوحًا ذَا فَجْوَةٍ وَاسِعَةٍ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ
غَارِقُونَ فِي الْبَحْرِ لَا مَحَالَةَ.

ما أَكْثَرَ مَا تَرَكَهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ مِنْ بَسَاتِينٍ وَعُيُونٍ مَاءٍ، مِنْ
بَعْدِ إِغْرَاقِهِمْ!

وما أَكْثَرَ مَا تَرَكَوهُ مِنْ زُرُوعٍ قَائِمَةٍ، وَمَوَاضِعٍ أُنِيقَةٍ،
وَأَمَاكِنَ حَسَنَةٍ شَرِيفَةٍ!

وَرَعْدَ حَيَاةٍ وَهَنَاءٍ عَيْشٍ وَرَفَاهِيَةٍ كَانُوا يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا،
وَيَتَلَذَّذُونَ بِهَا!

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَا بني إِسْرَائِيلَ تِلْكَ الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ، وَالزُّرُوعَ،
وَالْمَقَامَ الْكَرِيمَ الَّذِي كَانَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

فَمَا بَكَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَغْرَقَهُمُ
اللَّهُ تَعَالَى فِي الْبَحْرِ! وَمَا كَانُوا مُؤَخَّرِينَ بِالْعُقُوبَةِ حِينَ جَاءَ وَقْتُ
هَلَاكِهِمْ.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنْ عَذَابِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الْمُذِلِّ لَهُمْ؛
كَذَّبَ أَبْنَاءُهمُ، وَاسْتَحْيَاءَ نِسَائِهِمْ، وَاسْتِعْبَادِهِمْ وَتَكْلِيفِهِمُ الْأَعْمَالَ
الشَّاقَّةَ.

نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ، إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مُتَّصِفًا بِالْإِسْتِعْلَاءِ
وَالْإِسْتِكْبَارِ وَالْإِسْرَافِ وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ.

ولقد اخترنا بني إسرائيل - على علمٍ مِنّا بهم وبأهليّتهم لهذا الاختيار - على عالمي زمانهم.

وآتينّا بني إسرائيل من الآيات ما فيه اختبارٌ لهم ظاهرٌ.

إِنَّ كُفَّارَ فُرَيْشٍ لَيَقُولُنَّ مُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ:

ما هي إِلَّا مَوْتُنَا الَّتِي نَمُوتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَهَا، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ.

فَأْتُوا بِآبَائِنَا الَّذِينَ مَاتُوا مِنْ قَبْلُ، فَلْيَرْجِعُوا إِلَى الدُّنْيَا أَحْيَاءَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِنْ كُنْتُمْ حَقًّا صَادِقِينَ فِي أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُنَا بَعْدَ مَوْتِنَا!

أُمْشِرْكَو فُرَيْشَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ ثُبُعِ مَلِكِ الْيَمَنِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ كَعَادٍ وَثَمُودَ؟! مَعَ أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ أَهْلُكُنَاهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُنْصِفِينَ بِالْإِجْرَامِ، فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ نُهْلِكَ كُفَّارَ فُرَيْشٍ وَهُمْ دُونَهُمْ، كَمَا أَهْلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ!

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَعِبًا بَلَا مَعْنَى وَلَا فَائِدَةً!

مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، وَمِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ الْحَقِّ بِعِبَادَتِي وَحْدِي، وَلَكِنْ أَكْثَرَ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ بَعَثِ الْعِبَادِ وَمُجَازَاتِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهُمْ لَا يَخَافُونَ عُقُوبَةً، وَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا.

إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ الْوَقْتُ الْمَحْدَدُ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ أَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، فَيُفْصَلُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُفْصَلُ فِيهِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ؛ فَيُعَاقَبُ الْمُسِيئُونَ، وَيُثَابُ الْمُحْسِنُونَ.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ قَرِيبُ قَرِيبِهِ، وَلَا صَاحِبٌ صَاحِبَهُ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِ، وَلَا هُمْ يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُ يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِالْعِزَّةِ الْبَالِغَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَهْرُهُ وَانْتِقَامُهُ مِنَ الْكَافِرِينَ؛ الْمُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ رَحْمَتُهُ بِالْمُؤْمِنِينَ.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ تَنْبُثُ فِي الْجَحِيمِ ثَمَرُ شَجَرَةِ الزَّقُومِ هُوَ طَعَامُ الْمُبَالِغِ فِي اكْتِسَابِ الْأَثَامِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ.

ذَلِكَ الطَّعَامُ يَكُونُ كَالسَّائِلِ الْمُنتَنِ الْغَلِيظِ الْأَسْوَدِ الَّذِي بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْحَرَارَةِ، يَغْلِي فِي بُطُونِ أَكْلِيهِ. كَغَلْيَانِ الْمَاءِ الَّذِي تَنَاهَتْ حَرَارَتُهُ!

يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَلَائِكَةِ الْعَذَابِ: خُذُوا هَذَا الْكَافِرَ فَسُوقُوهُ وَاسْحَبُوهُ بَعْفٍ وَغُلْظَةٍ وَمَهَانَةٍ إِلَى وَسْطِ النَّارِ. ثُمَّ صُبُّوا عَلَى رَأْسِهِ مِنَ الْمَاءِ الْبَالِغِ الْغَايَةَ فِي شِدَّةِ حَرَارَتِهِ، فَيَعْمُ الْعَذَابُ جَمِيعَ بَدَنِهِ!

يُقَالُ لَهُ تَهَكُّمًا بِهِ: ذُقْ هَذَا الْعَذَابَ؛ إِنَّكَ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا الْعَزِيزَ فِي قَوْمِكَ، الْكَرِيمَ عَلَيْهِمْ فِي زَعَمِكَ، فَإِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا ذَلِيلٌ مَهِينٌ! إِنَّ هَذَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَشْكُونَ فِيهِ، وَتُجَادِلُونَ فِي وُقُوعِهِ؛ فَذُوقُوهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ الْآنَ حَقِيقَتَهُ يَقِينًا!

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا سَخَطَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ: مُسْتَقَرُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي مَوْضِعٍ يَأْمَنُ فِيهِ سَاكِنُهُ مِنَ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ مِنْهَا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ وَحَزَنٍ وَنَكْدٍ، وَمِنْ سَائِرِ الْأَفَاتِ وَالْمَصَائِبِ.

مَقَامُهُمْ فِي بَسَاتِينٍ وَغُيُونٍ مَاءٍ.

يَلْبَسُونَ فِي الْجَنَّةِ الْحَرِيرَ الرَّقِيقَ النَّاعِمَ، وَالْغَلِيظَ اللَّامِعَ
الْبَرَّاقَ، مُتَوَاجِهِينَ يُقَابِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْوُجُوهِ، فَلَا يَجْلِسُ أَحَدٌ
مِنْهُمْ وَظَهْرُهُ إِلَى غَيْرِهِ.

كَذَلِكَ، وَزَوْجَانَهُمْ بِنِسَاءٍ نَفِیَّاتٍ الْبِیَاضِ، شَدِيدَاتِ بِيَاضِ
الْعَيْنِ مَعَ قُوَّةِ سَوَادِهَا، وَاسْعَاتِ الْأَعْيُنِ حِسَانِهَا.
يَطْلُبُ الْمُتَّقُونَ فِي الْجَنَّةِ كُلَّ مَا يَشْتَهُونَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَوَاكِهِ،
فَتَأْتِيهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ، أَمْنِينَ مِنْ نَفَادِهَا أَوْ انْقِطَاعِهَا، وَأَمْنِينَ مِنْ
أَنْ يَنَالَهُمْ مِنْ أَكْلِهَا ضَرَرٌ، أَوْ يَلْحَقَهُمْ أَذًى.
لَا يَذُوقُ الْمُتَّقُونَ فِي الْجَنَّةِ الْمَوْتَ أَبَدًا إِلَّا الْمَوْتَ الْأُولَى الَّتِي
مَاتُوا مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا، وَنَجَّى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ،
فَصَرَفَهُ عَنْهُمْ.

وَإِنْ وَقَايَتْهُمْ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ تَفَضُّلٌ مِنْ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ-
عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانٌ مِنْهُ إِلَيْهِمْ، وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ وَدُخُولُ الْجَنَّةِ: هُوَ
الرَّيْحُ وَالظَّفَرُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا قُوَّةَ غَيْرُهُ.
فَإِنَّمَا سَهَّلْنَا عَلَى النَّاسِ -يَا مُحَمَّدُ- هَذَا الْقُرْآنَ وَبَسَّرْنَا لَهُمْ
بَيَانَهُ بِلُغَتِكَ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ؛ لَعَلَّهُمْ يَفْهَمُونَ
مَعَانِيَهُ، وَيَنْعِظُونَ بِعِظَاتِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِهِ.
فَتَرَقَّبْ -يَا مُحَمَّدُ- مَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ وَانْتَظِرْهُ؛
إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ.

افْتَتَحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِهَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ
الَّتِي تُسْتَفْتَحُ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ لِبَيَانِ إِعْجَازِهِ؛ حَيْثُ
نُظِرَ عَجَزُ الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ
الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا.

تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْمُتَّصِفِ بِكَمَالِ الْعِزَّةِ؛ فَهُوَ الْغَالِبُ الْقَاهِرُ، الْعَظِيمُ الْقَدْرُ، الْمُتَمَتِّعُ عَلَيْهِ كُلُّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ؛ وَالْمُتَّصِفِ أَيْضًا بِالْحِكْمَةِ النَّامَّةِ فِي شَرْعِهِ وَخَلْقِهِ وَقَدْرِهِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ اللَّائِقِ بِهِ.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَعَلَامَاتٍ بَاهِرَةً، وَدَلَائِلَ وَاضِحَةً عَلَى الْحَقِّ لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ.

وَفِي خَلْقِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ-، وَخَلْقِهِ مَا يَنْشُرُهُ وَيُفَرِّقُهُ مِنَ الدَّوَابِّ بِأَنْوَاعِهَا: دَلَالَاتٌ وَاضِحَةٌ، وَعَلَامَاتٌ بَاهِرَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ بِالْحَقِّ، فَيَقْرَءُونَ بِهِ، وَيَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ.

وَفِي تَعَاقِبِ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ دَائِبِينَ لَا يَفْهَرَانِ، وَاخْتِلَافِهِمَا فِي الطُّولِ وَالْقَصْرِ، وَالتُّورِ وَالظُّلُمَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَفِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، فَأَنْبَتَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ جَدْبِهَا، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْزَاقَ الْعِبَادِ وَأَقْوَاتِهِمْ، وَفِي تَنْوِيعِ الرِّيَّاحِ بِأَرْسَالِهَا مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَبِصِفَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ فَتَارَةٌ تَكُونُ حَارَّةً، وَتَارَةٌ بَارِدَةً، وَتَارَةٌ تَكُونُ نَافِعَةً، وَتَارَةٌ ضَارَّةً، وَتَارَةٌ تَكُونُ رَحْمَةً، وَتَارَةٌ عَذَابًا... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ -دَلَالَاتٌ وَاضِحَاتٌ وَعَلَامَاتٌ بَاهِرَاتٌ عَلَى الْحَقِّ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى حُجَجَهُ، وَيَفْهَمُونَ مَا وَعَظَهُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْعِبَرِ.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نُخَبِّرُكَ بِهَا -يَا مُحَمَّدُ- وَنَقْرُؤُهَا عَلَيْكَ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ، مُشْتَمِلَةً عَلَى الْحَقِّ وَالصِّدْقِ الْخَالِصِ، الَّذِي لَا بَاطِلَ مَعَهُ وَلَا كَذِبَ، فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ الْمُشْرِكُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَبَآئِي حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ وَيَنْتَفِعُونَ وَيَعْتَبِرُونَ؟! إِنْ لَا أَحْسَنَ مِنَ الْقُرْآنِ حَدِيثًا.

عَذَابٌ وَهَلَاكٌ لِكُلِّ كَافِرٍ كَذَّابٍ مُفْتَرٍ، مُبَالِغٍ فِي اقْتِرَافِ الْآثَامِ.

يَسْمَعُ آيَاتِ الْقُرْآنِ تُقْرَأُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ وَإِثْمِهِ
مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَقَبُولِهَا وَاتِّبَاعِهَا، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا
أَصْلًا! فَبَشِّرْهُ -يا مُحَمَّدٌ- بِعَذَابٍ مُّوجِعٍ شَدِيدٍ الْإِيلَامِ.
وَإِذَا عَزَفَ شَيْئًا -ولو قليلاً- مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، اسْتَهْزَأَ بِهَا،
وَسَخَرَ مِنْهَا، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ يُخْزِيهِمْ وَيُذِلُّهُمْ وَيُهَيِّئُهُمْ.
لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ يُصَيِّرُونَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يَدْفَعُ عَذَابَهَا
عَنْهُمْ أَيُّ شَيْءٍ -ولو قليلاً- مِمَّا كَسَبَوْهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ أَوْ
الْأَوْلَادِ! وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي عَبَدُوهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ دُونِ
اللَّهِ، أَوْ رُؤُوسَاؤُهُمُ الَّذِينَ أَطَاعُوهُمْ فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ! وَلَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ مُؤَلَّمٌ.

هَذَا الْقُرْآنُ هُدًى يُبَيِّنُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيَذِلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى
الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الْقُرْآنِ الدَّالَّةِ عَلَى الْحَقِّ،
فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا بِهَا: لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ جَنْسِ الْعَذَابِ الْمُوجِعِ
شَدِيدِ الْإِيلَامِ!

اللَّهُ هُوَ الَّذِي ذَلَّلَ لَكُمْ الْبَحَرَ -أَيُّهَا النَّاسُ-؛ لِتَسِيرَ فِيهِ السُّفُنُ
بِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَتُيسِّرَهُ، وَلِتَطْلُبُوا مَعَاشَكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ؛ كَنَقْلِ
الْبَضَائِعِ، وَصَيْدِ الْأَسْمَاكِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى
نِعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَحْصُلُ بِتَسْخِيرِهِ لَكُمْ الْبَحَرَ، فَتُوجِّدُونَهُ،
وَتُطِيعُونَهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ.

وَذَلَّلَ اللَّهُ لَكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- مَا فِي السَّمَوَاتِ مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ،
وَنُجُومٍ وَسَحَابٍ، وَمَطَرٍ وَهَوَاءٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا فِي الْأَرْضِ
مِنْ شَجَرٍ وَجِبَالٍ، وَمِيَاهٍ وَدَوَابٍّ وَمَعَادِنٍ... وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِمَنَافِعِكُمْ،
وَجَمِيعِ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ،

وعلاماتٍ باهراتٍ على الحقِّ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ في آياتِ الله
وَيَعْتَبِرُونَ بها.

قُلْ -يا مُحَمَّدُ- أَمْرًا الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَاتَّبَعُواكَ أَنْ يَعْفُوا
وَيَتَجَاوَزُوا عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ وَأَذَاهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
ثَوَابَ اللهِ، وَلَا يَخَافُونَ وَقَائِعَهُ فِي الْعَاصِينَ، وَأَنْ يَصِيرُوا عَلَى
أَذَاهُمْ، وَلَا يُعَاقِبُوهُمْ، إِنَّمَا أَمْرُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْمَغْفِرَةِ لِلَّذِينَ
يُؤْذِنُوهُمْ؛ لِيَجْزِيَ اللهُ أَعْدَاءَهُمْ هَؤُلَاءِ بِمَا كَسَبَوْهُ مِنْ آثَامٍ،
فَيُعَذِّبَهُمْ.

مَنْ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا بَطَاعَةً لِلَّهِ، فَاِمْتَثَلَ أَوْامِرَهُ، وَاجْتَنَبَ
نَوَاهِيَهُ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ لَهُ، وَمَنْ عَمِلَ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي فَضَرَّرَ ذَلِكَ
وَوَبَّأَهُ عَلَى نَفْسِهِ، لَا عَلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تَصِيرُونَ -أَيُّهَا
النَّاسُ- بَعْدَ مَوْتِكُمْ أَحْيَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ؛
خَيْرَهَا وَشَرَّهَا.

وَلَقَدْ أَعْطَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ، وَالْحُكْمَ، وَجَعَلْنَا فِيهِمْ
كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ،
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ.

وَأَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ الْحُجَجِ، فَمَا تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ الَّذِي يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا
يَقُفُّونَ، وَيُوجِبُ عَدَمَ الْاِخْتِلَافِ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الظُّلْمُ
وَاعْتِدَاءُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَالْحَسَدُ وَطَلَبُ الرِّيَاسَةِ، إِنَّ رَبَّكَ
-يا مُحَمَّدُ- يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ بَيْنَ أَوْلَئِكَ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَيُمَيِّزُ الْحَقَّ مِنَ
الْمُبْطَلِ، وَيُجَازِي كُلًّا مِنْهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّ.

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ -يا مُحَمَّدٌ- مِنْ بَعْدِ أَنْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ: عَلَى طَرِيقَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ وَمِنْهَا جَاضِحٌ مِنَ الدِّينِ؛
فَاتَّبِعْ شَرِيعَةَ اللَّهِ الَّتِي أَوْحَاهَا إِلَيْكَ، وَلَا تَتَّبِعْ -يا مُحَمَّدٌ- مَا
يَدْعُوكَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ الْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ وَدِينِهِ مِنْ مُخَالَفَةٍ لِشَرَعِ
اللَّهِ.

إِنَّ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ -يا مُحَمَّدٌ- لِاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ: لَنْ
يَنْفَعُوكَ عِنْدَ اللَّهِ بِشَيْءٍ، وَلَنْ يَدْفَعُوا عَنْكَ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، وَخَالَفْتَ مَا شَرَعَ اللَّهُ لَكَ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَوَلَّى
بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ فَهُمْ أَنْصَارُ وَأَحْبَابُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَأَعْوَانٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ نَاصِرٌ وَمُعِينٌ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ سَخَطَ اللَّهِ
وَعَذَابَهُ، بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى.

هَذَا الْقُرْآنُ دَلَالٌ سَاطِعَةٌ يُبْصِرُ بِهَا النَّاسُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ،
وَيَعْرِفُونَ بِهَا الصَّوَابَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَهَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَى الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَرَحْمَةٌ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أَمْ ظَنَّ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ فِي الدُّنْيَا وَاكْتَسَبُوا أَنْ تُسَاوِيَهُمْ
فِي حَيَاتِهِمْ وَمَوْتِهِمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ؟!
كَلَّا؛ فَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ سَوَاءً مَعَ الْكَفَّارِ، لَا فِي الْمَحْيَا وَلَا فِي
الْمَمَاتِ، بِنَسَبِ هَذَا الْحُكْمِ الَّذِي حَسِبَهُ الْمُشْرِكُونَ؛ أَنَّ اللَّهَ يُسَاوِي
بَيْنَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي
مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ!

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، وَلِيُثِيبَ اللَّهُ
كُلَّ عَامِلٍ بِمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَبِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ

عِقَابٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ النَّاسَ شَيْئًا مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ؛ بِنَقْصِ ثَوَابِهِمْ، أَوْ زِيَادَةِ عِقَابِهِمْ.

أَفَرَأَيْتَ -يَا مُحَمَّدُ- الَّذِي جَعَلَ مَعْبُودَهُ مَا يَهْوَاهُ، فَيَعْبُدُ وَيُطِيعُ مَا هُوَ بِهِ دُونَ اللَّهِ الْمُسْتَحَقَّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ؟! وَأَضَلَّ اللَّهُ ذَلِكَ الْمُتَّبِعَ هَوَاهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ أَنَّهُ يَضِلُّ وَلَا يَهْتَدِي، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى سَمْعِهِ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِسَمَاعِ الْحَقِّ، وَطَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْقِلُ بِهِ الْحَقَّ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِطَاءً يَمْنَعُهُ مِنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ، فَهُوَ لَا يَنْتَفِعُ بِبَصَرِهِ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ، فَلَا أَحَدَ يَهْدِيهِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ بَعْدَ أَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ! أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ -أَيُّهَا النَّاسُ- فَتَعَلَّمُوا أَنَّ مَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ فَلَنْ يَهْتَدِيَ أَبَدًا، وَلَا سَبِيلَ لَأَحَدٍ إِلَى هِدَايَتِهِ؟!

وَقَالَ الْكُفَّارُ تَكْذِيبًا لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ: مَا تَمَّ حَيَاةٌ غَيْرُ حَيَاتِنَا هَذِهِ الَّتِي نَحْيَاهَا الْآنَ! يَمُوتُ أَنْاسٌ، وَيَحْيَا آخَرُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ حَيَاةٍ أُخْرَى، وَمَا يُفْنِينَا إِلَّا الزَّمَانُ، فَتَبَلَّغُ فِيهِ بِمُرُورِ أَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ سِنَّ الْهَرَمِ وَالشَّيْخُوخَةِ، فَتَمُوتُ، أَوْ تُصَيَّبُنَا فِيهِ أَسْبَابٌ تُفْضِي بِنَا إِلَى الْهَلَاكِ وَالْمَوْتِ! وَمَا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْ قَدْرٍ مِنَ الْعِلْمِ بِصِحَّةِ مَا يَقُولُونَ، وَلَا بُرْهَانَ لَدَيْهِمْ! مَا يَقُولُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الظَّنِّ، وَلَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِمَّا يَدَّعُونَ.

وَإِذَا تُنْثَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْوَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى وَقُوعِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سِوَى قَوْلِهِمْ: أَحْيَاؤْنَا أَبَاؤَنَا الْمَوْتَى إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُنَا بَعْدَ مَوْتِنَا؛ حَتَّى نَصَدِّقَ بِحَقِيقَةِ مَا تَزْعُمُونَ!

قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- لَهُوْلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ: اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِيكُمْ فِي الدُّنْيَا مَا شَاءَ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ مَتَى شَاءَ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَالِكُمْ، ثُمَّ

يَجْمَعُكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءَ، لَا شَكَّ فِي وُقُوعِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، فَمِنْ جَهْلِهِمْ يُنْكِرُونَ الْمَعَادَ، وَبَعَثَ الْعِبَادَ!

وَلِلَّهِ وَحْدَهُ مُلْكُ جَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ فَهُوَ خَالِفُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا دُونَ الدَّهْرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ لَهُ تَصَرُّفًا فِي الْكَوْنِ! وَيَوْمَ تَجِيءُ الْقِيَامَةُ يَخْسِرُ الْكَافِرُونَ أَصْحَابَ الْأَبْطَالِ، فَيَصِيرُونَ إِلَى النَّارِ.

وَتَرَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ -يَا مُحَمَّدُ- أَهْلَ كُلِّ مِلَّةٍ جَالِسِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ، مُنْتَظِرِينَ قَضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمَهُ عَلَيْهِمْ، كُلُّ أَهْلِ مِلَّةٍ تُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صَحَائِفِ أَعْمَالِهَا الَّتِي كَتَبَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، يُقَالُ لِلْأَمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْيَوْمَ تَنَالُونَ جَزَاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

يُقَالُ لِلْأَمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَذَا كِتَابُنَا يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمُ الَّتِي كَتَبَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، فَيُبَيِّنُهَا بِمَا هُوَ مُوَافِقٌ لِلْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَكْتُبَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِكُلِّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الْخَالِصَةَ الْمُوَافِقَةَ لِشَرْعِهِ: فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي جَنَّتِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْبَيِّنُ الظَّاهِرُ.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتُ الْقُرْآنِ تُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَاتَّبَاعِهَا، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا وَقَبُولِهَا، وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُتَّصِفِينَ بِالْإِجْرَامِ فِي أَعْمَالِكُمْ، فَتَكْتَسِبُونَ الْآثَامَ، مَعَ مَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ؟!

وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ: إِنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنَ الْبَعْثِ أَوْ غَيْرِهِ أَمْرٌ
كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَإِنَّ الْقِيَامَةَ الَّتِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهَا النَّاسَ لِلْحِسَابِ
وَالْجَزَاءِ لَا شَكَّ فِي مَجِيئِهَا؛ قُلْتُمْ تَكْذِيبًا وَإِنْكَارًا: لَا نَعْرِفُ مَا
الْقِيَامَةُ! وَقُلْتُمْ: مَا نَعْلَمُ وَقُوعَ السَّاعَةِ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الظَّنِّ
وَالتَّوَهُُّمِ! وَمَا نَحْنُ بِمُتَحَقِّقِينَ أَنَّ الْقِيَامَةَ كَائِنَةٌ!

ar10125v1.0 - 06/09/2026